

## الدكتور فاروق بزي (اختصاصي في طب الاطفال والاولاد)

### تطور الطب نحو الوقاية والاكتشاف المبكر للأمراض خطيرة

مع مرور الزمن يسعى الطب الحديث, بفروعه المتعددة واختصاصاته المتفرعة, إلى أن يكون وقائياً وليس علاجياً فقط, لا سيما في المجالات التي تسهل له السبل الوقائية لنشرها وتعميمها وتهيئة أسس التوعية والتثقيف الصحي مع تعدد الوسائل الإعلامية, المكتوبة, المرئية والمسموعة؛ إلى جانب المجال الشاسع والواسع الانتشار في ظل تقدم المعلوماتية, بعدما أصبح العالم بمثابة قرية كونية تتواصل بسرعة فائقة وخلال لحظات يمكننا الحصول على المعلومة المبتغاة .



يضاف إلى ذلك وجود عنصر بشري متخصص يعمل في المجال الوقائي , يجهد, يرصد وينشر بسرعة فائقة كافة المعلومات في حال حدوث مرض حاد أو خطر انتقال وباء ما في أية بقعة من العالم, عينا المنظمات والمؤسسات والإدارات العالمية ( منظمة الصحة العالمية, منظمة الأمم المتحدة الرعاية الطفولة... ) والتي تعنى بصحة الإنسان بشكل عام , إذ تعمل على مراقبة ومتابعة هذا التطور البالغ الأهمية في مجال الصحة الجسدية وقائياً وعلاجياً في آن.

ترجع هذه التطورات إلى التقدم المطرد في ميادين التقنيات والاختراعات الطبية وتنوع الأبحاث المخبرية وتشعبها , إلى الانجازات المتواصلة في علوم البيئة والحياة وتطور علم الجراثيم والعوامل التغيرية (Mutation) التي تخضع لها, والتقدم الباهر في علم المناعة , دون أن ننسى التطورات الهامة التي اكتسبها علم الوراثة بعد تحديد الخارطة الوراثية شبه النهائية للإنسان واغتناء علم الصبغيات (chromosomes) وتحليل الحمض النووي (DNA) وخلايا المنشأ, إلى عمليات الاستنساخ لضرورات يتوخى منها البقاء ضمن الأطر الأخلاقية والقانونية لخدمة الإنسانية ليس إلا .

نتيجة هذه العوامل والنتائج الباهرة , يضاف إليها الإنجازات في غاية الأهمية في مجال اللقاحات, للأطفال والكبار على حد سواء, إلى الأبحاث المتواصلة لإيجاد لقاحات أخرى ضد أمراض العصر المستعصية على العلاج (الإيدز مثلا) وغيرها من الأمراض المستفحلة والتي تؤدي بحياة الملايين من البشر عبر العالم وسنويا (الملا ريا, السل ..)؛

- من المهم بمكان الإشارة في بداية حديثنا أن الطب الوقائي شكل , في العقود الماضية ومازال, حجر الزاوية للتخلص من الكثير من الأمراض القاتلة أو المُعدية بشكل خاص , وكرت سبحة اللقاحات لتصل إلى 26 لقاحا فعالا حتى الآن وآخرها المولود الجديد في عائلة اللقاحات , عنينا اللقاح ضد سرطان عنق الرحم. وما اختفاء مرضي شلل الأطفال والحصبة في العديد من بلدان العالم المتطورة صحيا, إلا خير دليل على إيجابيات وفعالية الطب الوقائي بعد أن أودت هذه الأمراض وغيرها بحياة الملايين من الأطفال أو تركتهم فريسة للإعاقة الجسدية , الفكرية أو النفسية .

- في مجال الزواج والإنجاب يقدم الطب الحديث , ومنذ عقود, نصيحة وقائية في موضوع الزواج والإخصاب, إذ يشجع على الإنجاب في فترات مبكرة , لدى الأم الشابة , وينصح أن يحصل الحمل في فترة العمر الواقعة بين 20 و35 عاما إذا ما علمنا أن عدد البويضات الصالحة للتلقيح يوازي حوالي أربعمائة ألف بويضة لدى الفتاة البالغة, وهو ما يشكل المخزون النهائي وغير القابل للتجدد أي منذ مرحلة البلوغ وحتى سن الإياس , يضاف إلى ذلك إمكانية تعرض الجهاز التناسلي ( المبيض, الرحم والأنبوب ) إلى أمراض تحد وتعيق حصول الحمل, إلى التغير النوعي للبويضة مع مرور الزمن, هذا إلى عوامل بيولوجية ونفسية لدى الزوجين يمكن أن تؤثر على عملية الإنجاب مع مرور الوقت.

- قبل الزواج أصبح لزاما على الشريكين إجراء تحاليل مخبرية, إذ يجري تحديد فئة الدم لكل منهما والتأكد من خلو الزوجين من أمراض خطيرة ومُعدية ( السيدا, اليرقان من فئة

ب-..), أو وجود خلل في خضاب الدم (Hémoglobine) لدى أحدهما أو كليهما للوقاية من انتقال هذه العاهة إلى الجنين, ونذكر هنا مرض " التلاسيميا " من فئة " ألفا" وغيرها من الأمراض الوراثية.

- خلال فترة الحمل يجري الطبيب الأختصاصي بالأمراض النسائية والتوليد فحوصات مخبرية ( الحصبة الألمانية, التوكسوبلاسما ..) وصوراً صوتية دورية للجنين لمراقبة الحمل والاطمئنان إلى غياب التشوهات الخلقية ( القلب, الكلى, الدماغ, العظام, الجهاز الهضمي ..) إلى أمراض يمكن معالجتها داخل الرحم , في بعض الحالات, قبل استفحالها وتشكيلها خطراً داهماً على صحة الجنين, الأم, أو الاثنين معا .
- عند الولادة يعتمد الطب الوقائي وفي الساعات الأولى لحياة المولود الجديد إلى أخذ عينة من دم الطفل و التشخيص لأمراض وراثية بيولوجية ( نقص إفراز الغدة الدرقية من خلال هرمون TSH , فحص فينيلكيتونوريا:.( phénylcétonurie).
- المتابعة الدورية للأطفال , الرضع منهم بشكل خاص , بواسطة الفحص السريري الشهري الدقيق والمتكامل, حيث يعمل الطبيب الأختصاصي بأمراض الأطفال , على الاكتشاف المبكر للعديد من الأمراض التي لا تظهر بشكل واضح وأكد عند الولادة, خصوصاً ما يتعلق منها بحياة الطفل خارج بيت الرحم عندما تبدأ أعضاء جسمه بوظائفها تلقائياً. نذكر هنا العاهات الخلقية في القلب ( عاهات الأذنين, البطينين, قناة وريدية, عاهة في الشريان الأبهر.., اضطراب في وتيرة نبضات القلب ..) , أو الخلل في نمو الدماغ داخل الجمجمة ( توقف الدماغ عن النمو أو العكس نموه بشكل سريع لأسباب عديدة (منها استسقاء الدماغ, ورم...)). يمكن استنتاج هذا الخلل بواسطة فحص بسيط يقوم على قياس محيط الجمجمة ومراقبة ذلك دورياً, أو خلل تكويني في الأنف ما ينبه إلى التدقيق ملياً في فحص القلب والجس الدائم لنبض الشريان الفخذي (pouls fémoral) على مستوى جذعي الفخذين ( يدل على تشوه خطير في القلب في بعض الحالات). لن ننسى ظاهرة " داون" أو المرض المنغولي الذي يشخص باكراً قبل الولادة من خلال تحاليل وصور متخصصة, أو خلل في الجهاز العصبي

المحيطي لدى الرضيع يشير ربما إلى عاهة في الدماغ في بدايته أو ناتج عن مرض أيضي (metabolique) من الممكن تشخيصه باكرا.. وعلى مستوى البطن يظهر الفحص الدوري للطفل حجم غدة الطحال (la rate) بواسطة الجسّ بالأصابع وإذا ما تضخمت وترافق ذلك مع انتفاخ حجم الغدد اللمفاوية الموزعة في كافة أرجاء الجسم , ما يساعد على الاكتشاف المبكر للعديد من الأمراض الخطيرة (أمراض الدم بشكل خاص), والبحث عن تضخم مرافق للكبد ما يشير إلى وجود عاهة ما يتوجب الكشف عنها باكرا , معالجتها والوقاية من مضاعفاتها الخطيرة في كثير من الحالات.كذلك الأمر بالنسبة لمراقبة حجم الكبد لاسيما أبان الأشهر الأولى خاصة إذا ما سبق هذا التضخم , حالة اصفرار (يرقان ) الذي يمكن أن تمتد لأسابيع بعد الولادة ما ينم عن إصابة الكبد ( التهاب فيروسي متعدد الأسباب,نقص إفراز الغدة الدرقية,التهاب في المجاري البولية...أو وجود تشوهات خلقية على مستوى المرارة والمجاري الصفراوية وما يعتري ذلك من تأثيرات سلبية على وظائف الكبد المتعددة ..).إلى كل ذلك يتوجب الفحص الدوري للكليتين والمثانة, وفي حال الشك بوجود أدنى إصابة على مستوى الشجرة البولية يمكن الكشف عنها باكرا وقبل استفحال الأمور.

• هذا إلى جانب رصد عاهات وراثية أقل خطورة نذكر منها : خلع الورك, فتق في الزكرة, وجود فتق إربي أوفي جراب الخصية, كيس في قناة الخصية, خصية خارج الجراب تشوهات في الأعضاء التناسلية لدى الجنسين ,خلل في العمود الفقري , غياب فقرة و نتوء النخاع الشوكي إلى الخارج . كلها عاهات لا تظهر جليا للعيان ما يوجب إعطاء الوقت الكافي لفحص سريري متأن ودقيق.

هذا إلى جانب أمراض عديدة تظهر في أعمار محددة بعد الولادة ( أمراض الدم , خلل في جهاز المناعة إلى اضطرابات النمو نقصا أو زيادة ما ينم عن خلل في وظائف الغدد الصماء) خارج نطاق التغذية أو نقص في عمل الكلى, ناهيك عن زيادة الوزن والسمنة وغيرها من العاهات أو الأمراض التي يمكن تشخيصها باكرا قبل استفحالها وتشكيلها خطرا داهما على صحة الطفل , الولد, الفتى أو اليافع فيما بعد .من هنا تبرز أهمية الفحص السريري الدوري

والكامل ( من قمة الرأس حتى أخمص القدمين ) لجميع الأطفال ,حتى الأطفال الذين يعتبرهم الأهل في صحة جيدة , لا سيما في السنوات الأولى من العمر , وعدم الاكتفاء بتوجيه الاهتمام أو التركيز فقط على العضو التي تشير إليه العلامات المرضية والتي من أجلها أحضر الأهل طفلهم للاستشارة الطبية .

- ابتداء من سن محدد يسعى الطب الوقائي إلى البحث والاستقصاء المبكر لدى المرأة والرجل عن أمراض خطيرة ( أورام سرطانية بشكل خاص) ما يُمكن من تشخيص الداء باكرا بواسطة إجراء الفحوصات المخبرية والصور النوعية ( شعاعيه, صوتية, تصوير طبقي بواسطة الكمبيوتر, رنين مغنطيسي ....), ونذكر في هذا المجال ما يجري في البلاد المتطورة صحيا والتي وصلت إلى مستوى عال من الرعاية الصحية والوقائية من الأمراض , والتي تعنى بصحة مواطنيها ( وهذا يعتبر جزءاً من كل في سلم التنمية الإنسانية التي تُعد أرقى وسائل التنمية حضاريا ) , تعتمد السلطات المختصة في تلك البلدان(فنلندا, الدانمرك, السويد , كندا....) إلى استدعاء مواطنيها لإخضاعهم لفحوصات دورية سنوية ومجانية, هذا ما يجري لدى المرأة بالبحث المبكر عن سرطان الثدي ( وهنا يكمن دور الطبيب النسائي في تثقيف المرأة للقيام بالفحص الذاتي الدوري والمتواصل بالتفتيش عن أي درنة أو تورم غير طبيعي في منطقة الثدي وإعلامه باكرا عن ذلك) إلى جانب الفحص الأساسي الدوري ابتداء من عمر محدد بواسطة الصور الصوتية والملونة للثدي؛ وسرطان عنق الرحم( حيث تكون الإصابة محصورة وموضعية في البدء وقبل انتشارها إلى كامل بيت الرحم في مرحلة متقدمة وخطيرة ) وذلك بواسطة الفحص السريري السنوي معززاً بفحص الزجاجة(Papesmear) والصور النوعية.

- وبالمقابل يجري لدى الرجل الاستقصاء عن مرضين داهمين يشكلان خطرا على حياته وهما سرطان البروستاتا( من خلال مراقبة دورية لنسبة الأجسام المضادة لهذه الغدة في الدم ( PSA ) والصورة الصوتية إلى جانب الفحص السريري, وسرطان القولون

عن طريق المنظار الطبي , حيث يتوجب على كل رجل بلغ 55 عاما وما فوق أن يجري هذه الفحوصات, لهذين المرضين , دوريا وفي فترات يحددها الطبيب .

من هنا نخلص إلى الاستنتاج أن الوقاية خير وأفضل من العلاج في كل الحالات المرضية , بالأخص تلك المعدية منها, وقد برهن الطب الوقائي فعاليته في هذا الميدان إلى جانب المراقبة والرعاية والحماية التي يسعى إلى تأمينها في مجالات عدة وعلى وجه الخصوص الأمراض السرطانية الأكثر شيوعا في عصرنا الحاضر التي ورد ذكرها آنفا؛ هذا إلى جانب الأنظمة الغذائية, الخاصة والوقائية, الواجب إتباعها لدى المرضى الذين يعانون من أمراض لها مخاطباتها الخطيرة على صحة الإنسان , على المدى القريب , المتوسط أو البعيد( داء السكري, ارتفاع ضغط الدم الشرياني, زيادة نسبة الكوليسترول والدهون في الدم... ) ... ما يجعل الأمل يزداد بمستقبل واعد وسنوات قادمة حافلة بالإنجازات من خلال الأبحاث المتواصلة والمكثفة في مجال الطب الوراثي .. ويأتي اليوم الذي يسمح بالقضاء على العديد من الأمراض المزمنة (الزهايمر , داء السكري, الروماتيزم, ترقق العظام, الذبحة القلبية والسكتات الدماغية وغيرها , ما يعزز الأمل بعمر مديد أقل عرضة للمرض, أكثر هناء وسعادة وعلى مدى أجيال صاعدة.